بلاغة المفردة القرآنية في التعبير الرباني وخصوصيتها الدلالية والبيانية داخل النظم

د. فتوح محمود

جامعة الشلف

Mahmoud.fettouh@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/05/24 تاريخ القبول:2019/11/30

الملخص:

لقد حظيت المفردة القرآنية باهتمام واسع لدى الكثير من علماء التراث والدارسيين الحداثيين مما عنوا بكتاب الله عزوجل، لأنهم وجدوها مادة خصبة تحمل سر عجيب تؤثر في النفس البشرية، لما تحمله من معان ودلالات بلاغية متناهية الأطراف لمناسبتها للسياق، وإن هذه الدراسة ستقف عند بلاغتها داخل النظم القرآني وتسجل خصوصيتها الدلالية التي انفرد بها السياق وميزها وعلا من شأنها وشأوها لأنها من مصدر إلهي، وكانت نتيجة العلاقة التي تربط المفردة القرآنية والمعاني التي تحملها داخل النظم القرآني هي علاقة تفاعل وتكامل مطلق، لأن السياق كشف لنا الكثير من الملامح الدلالية والجمالية التي تميز المفردة في التعبير القرآني، منها: البراعة في اختيار المفردة بدقة وتصويب الخطأ في استعمالها في غير مواضعها، واتساعها وتشبعها الدلالي، وأن لها معنى خاص يميزها مما يوهم بالترادف، والاشتراك اللفظي الحسنة المنزلة في مقامها والقبيحة الموضع في غيرها، وتعاور المفردات ودقة اختيارها ومناسبتها للموقف والسياق.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، المفردة القرآنية، الإعجاز القرآني، السياق، الدلالة.

Abstract : Many heritage scholars cared And modern studies Quranic singularity, Because they found the Koranic words Carrying a wondrous secret Affect the human soul, It carries many meanings And rhetoric For their compatibility with the context, This study Will stand at the eloquence of the Koranic words Within the Quranic structure Semantic privacy is recorded Which is unique in the composition of words In context and their distinction Because it is from a divine source, The result was the relationship Which link the Koranic words And the meanings it carries Within the Quranic structure Is a relationship of interaction and absolute integration, Because the context revealed to us Many of the features are semantic and aesthetic Which distinguish words in the Koranic expression, Including: rhetoric in the choice of words accurately Correct the error In the use of words in other places, The breadth and semantic depth of words, And that it has a special meaning distinguishes it from what is thought to be tandem, , Appropriate verbal participation in its place and ugly in others, And eloquence of the choice of similar words And different meanings Precisely for context compatibility.

Key words: Rhetoric, Quranic singularity, The Quranic miracle, Context, Significance.

مقدمة:

الحمد لله الذي اختص نبينا محمدا ﷺ بأكمل الفصاحة وأعطي جوامع الكلم وغايته، وميزه بمعجزة القرآن ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ١٩٥﴾ الشعراء/195، وجعل

هذا الكتاب الشريف حجة خالدة على مر الأزمان بالآيات والبرهان، وأوضح به للناس طريق المحجة وأظهر لهم بآياته نورا وجعله تبصرة لأولي الألباب، أجل الكتب قدرا وأغزرها علما وأعذبها نظما، وعلى آله وأصحابه الحائزين السبق في البلاغة بميدان البراعة، الهادين إلى طريق الحق بأوجز العبارة، وبعد:

فإن إعجاز القرآن الكريم بهر العرب الفصحاء وأخذ بعقول أهل العلم الألباء، فراحوا ينشغلون بقضايا إعجازه بالبحث عن خصوصيات امتيازه في عليائه، ودرر المعاني في أعماقه، ومن هنا كثرت الدراسات والاجتهادات بين الدارسين والباحثين على اختلاف مناهجهم وتنوع توجهاتهم وعصورهم، ولا يزال يشغلهم إلى يومنا هذا، لأن القرآن الكريم كتاب خالد على مر الأزمان ومجيد مصان حُفظ ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾ البروج/22 لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي بدائعه، ولا يستطيع الانسان مهما أوتي من البلاغة والبراعة على نظم مثله، وقد تحداهم الله سبحانه وتعالى في الكثير من مواضع القرآن الكريم على الاتيان بحديث مثله، بل بمثل سورة منه ولو كانت قصيرة مع استمرار التحدي والتقريع لهم، فقال ﷻ:﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ الطور/34، لكنهم عجزوا عن ذلك _بالرغم من أنهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان، ذو الحمية العربية والأنفة الأبية_؛ لأن كلامه ﷻ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ فصلت/42، فالمتأمل فيه كما قال الخطابي يجد أن الكلام فيه يقوم بأشياء ثلاثة:"لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه، وأما المعاني فلا خفاء على ذي عقل أنها هي التي تشهد لها العقول بالتقدم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها"[1].

وتعدّ قضية المفردة القرآنية من القضايا التي نالت الاهتمام الكبير من الدارسين في البحث والتقصي عن مكامن إعجازها، لأنهم وجدوها مادة خصبة تحمل سر عجيب تؤثر في الانسانية، ومتمكنة بدلالتها البلاغية المتناهية الأطراف في مكانها، تدل على معنى محدد بدقة لا يحل مكانها غيرها، فلا تعوض لفظة مكانها لمناسبتها للسياق وهذا سر إعجازي، ومن هنا سعى إليها الكثير منهم في معالجة قاضاياها ومزاياها.

أولا: مفهوم المفردة: أصل اللفظة الصحيح في اللغة من: الفاء والراء والدال ويدل على وُحدة، من ذلك الفرد وهو الوتر، والفارد والفرد: الثور المنفرد، وظبية فارد: انقطعت عن القطيع، وكذلك السدرة الفاردة: انفردت عن سائر السدر، وأفراد النجوم: الدراري في آفاق السماء، والفريد: الدّر إذا نُظم وفصل بينه بغيره[2].

أما **اصطلاحا:** فهي اللفظة الواحدة من الحديث والمؤلفة من حروف فصيحة تؤدي معنى يحددها السياق، وقد حدد بعض الدارسين مفهوم المفردة القرآنية من الوجهة الصوتية بأنها:"مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز للأشياء الحسية والأفكار المجردة"[3]، أو هي:"المجموعة الصوتية التي تدل على معنى، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأوّلي في بناء النظم والوحدة المكونة له، فلا يغنى أحدهما عن الآخر...، وهي ليست كائنا معجميا، إذ يتبين لقارئ القرآن أنها تمتاز بدلالة جديدة يُضفيها الموضوع على حياد المعجم"[4].

أما بلاغة المفردة القرآنية فنقصد بها تلك الجمالية الخاصة "بالجمال الموضوعي الذي ينشأ من أجزاء الموضوع الجميل وتركيبه وهو موضوعي لأنه يستند إلى فن الأدب وطبيعة النفس البشرية، فجمال المفردة موضوعي لأنه

واضح الأسباب ويعتمد على جزئيات المفردات، أي أن القيمة الفنية للمفردة في سياق البلاغة القرآنية، واستقلالها بأهمية كبيرة في مجال التأثير الوجداني، فهو جمال حسي بصري يبين أثر الكلمة المفردة في توصيل الصورة الفنية إلى الذهن، ويشمل تجسيم المعنويات وتشخيص الأشياء وبث الحركة والحيوية في الصورة"[5].

ثانيا: مكانة المفردة القرآنية في التعبير الرباني: إن المتأمل في كتب التفاسير والدراسات المتعلقة بالإعجاز في اسهامات المتقدمين والمتأخيرين يجد أن المفردة القرآنية حظيت باهتمام واسع وحيزا كبيرا من التتبع والدراسة، لأنها كسبت مكانتها ورفعت منزلتها ومقامها من النظم القرآني الذي ميزها بالإعجاز وجعلها تحمل رونقا وكساها بثوب جديد وأفاض عليها دلالات أخرى فوق ما يدل منها في المعنى اللغوي، ومن هنا علاّ من شأنها وشأوها، لأنها من مصدر إلهي، فقد "أفاض الله عليها هذا الفيض، ونفخ فيها من روحه، كما نفخ في عصى موسى، لكنه مع ذلك أبقى على تلك الكلمات طبيعتها التي يعرفها الناس منها كما أبقى على عصى موسى طبيعتها كذلك"[6].

وقد تحدث عنها علماء التراث العربي باسهاب كبير عن خصائصها وأسرارها، فالجاحظ (ت255هـ) مثلا _باعتباره من الأوئل من اهتم بها_ نجده يتحدث عن التوسع الدلالي في معاني مفردات القرآن بقوله: "إنَّه –أي القرآن- قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معانٍ متعددة يطول شرحها، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول وأقل دلالة"[7]، ونجده كذلك يهتم بالمفردة القرآنية كاشفا عن خصائصها ومدركا لكثير من أسرارها، يقول:"وقد يستخفف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا

في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السَّغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعا، والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال، وقد زعم بعض القراء أنه لم يرد ذكر النكاح في القرآن إلا موضع التزويج"[8].

أما في الدراسات الحداثية نجد محمد عبد الله دراز الذي كان له الفضل في مناقشة موضوع هذه القضية وعرضها بلغة راقية ونظر ثاقب، فقال" فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحما بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبحها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به، بحيث لا يجد المعنى في لفظة إلا مرآته الناصعة وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقراره المكين، لا يوما أو بضع يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا... وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان"[9].

أما سيد قطب فقد اهتم بالكشف عن النواحي الجمالية في ألفاظ القرآن وتراكيبه وسوره، بقوله:"إن القرآن حين يختار لفظا نجده دالا على معناه بالجرس أو بالظل أو بالظل والجرس معا، وفي هذا المنهج يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأوقع من الفصاحة اللفظية، اللذين يحسبهما بعض الباحثين في القرآن أعظم مزايا القرآن"[10]، وهذه الميزة عدّها عبد الله دراز هي

المكوّن للقشرة السطحية للجمال القرآني من خلال ما تحدثه من جمال توقيعي في توزيع حركاته وسكناته ومدّاته وغناته، وجمال تنسيقي في وصف الحروف وتأليفها[11].

ثالثا: الخصوصية الدلالية للمفردة داخل النظم القرآني: تتميز المفردة القرآنية بخاصية مميزة داخل النظم القرآني، التي هي الفصاحة وبلاغة مفرداتها ومناسبة المعنى للسياق، بخلاف في النظم البشري، لأننا _كما قال عبد القاهر الجرجاني_ "نرى اللفظة في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها فيما لا يحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنما كان كذلك، لأن المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح مزية تحدث من بعد أن لا تكون وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم"[12]، فحد البيان وجمال الصورة وبراعة النسج والتركيب سمة لاصقة بالمفردة القرآنية بخلاف في الاستعمال البشري، لأن بنية المفردة القرآنية ترد على قدر واحد من البيان في أداء المعنى دون أدني تفاوت أو تقصير في مكانها متمكنة فيه بمختلف صيغها، وهذا ما دعى ابن عطية إلى القول بأن:"كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام"[13].

فالتميز على المستوى الدلالي المعرفي للمفردة القرآنية جعلها تختلف اختلافا كبيرا عن جهد الفكر البشري، لأنها بارعة في ربط العلاقة بين الدال ومدلوله، وهي في الأصل علاقة عرفية، ويعتبرها الباحثون في الدرس اللساني الحديث كما جاءت عن دي سوسير بالاعتباطية، لكن السؤال المطروح: هل يمكن أن تصور

العلاقة القائمة بين الدال والمدلول على مستوى البنية الدلالية للمفردة القرآنية بأنها علاقة إعتباطية؟

معلوم أن النص القرآني هو نص معجز، ولا يمكن أن نخضع مفردات القرآن الكريم ببنيته التركيبية لهذه العلاقة، لأن نظم هذه المفردات تختلف عن سائر نظوم البشر، لأن المفردة اللغوية "بمثابة الوعاء بالنسبة للمعنى كما أنا الكأس وعاء السائل الذي يوضع فيه، ولا يمكن للوعاء أن يحمل أكثر من حجمه الذي صمم من أجل حاجته الوظيفية، فإن الكلمة الوضعية التي اصطلح عليها البشر تحمل من المعاني والدلالات ما يتناسب مع علم واضعها، ولا يمكن تحميلها من المعنى والدلالات أكثر مما حملها واضعها، فهي ذات المعنى الذي أدركه واضعها للشيء الذي وضعت الكلمة اسما له، وبالتالي تبتعد هذه الكلمة الوضعية عن ذات المعنى الحق لهذا الشيء مسافة جهل واضعها بحقيقة هذا الشيء"[14]، بينما المفردات القرآنية نسجت في تركيب محكم تحمل دلالات ومعاني خاصة تتوسع دلالاتها بحسب السياق الذي وردت فيه، وتبتعد كل البعد عن المعاني اللغوية التي يحملها المعنى المعجمي المتداول في اللسان البشري، فلا يمكن أن نتصور أن كل المفردات القرآنية التي وظفت تحمل معان لغوية خاضعة للتصور البشري البسيط، بل وظف الله ﷻ بعض الالفاظ القرآنية لتحمل دلالات مختلفة ضمن بنيتها في النص القرآني عما جاء معناها في السياق اللغوي والمعجمي، ومن هنا لا يمكننا أن نصف العلاقة بين الدال ومدلوله في النص القرآني بأنها إعتباطية، لأن هذا الأمر رباني أعجز البشر وأبهرهم، لأن "هذه الصبغة التي يحملها الكلام فهي صبغة ربانية إلاهية، هذه الصبغة الإلهية قائمة في كل كلمة من كلمات القرآن، وكل كلمة أعطاها الله تعالى وجودها الحقيقي الذاتي، وهذا له الوجود الفعال، وهذا لا يدرك عند

البشر وإنما يرمز له، فالمعاني الإلهية من قدرات غير محسوسة، وهذه الصبغة الإلهية تشكل الطابع الإعجازي"[15]

من خلال هذا التحليل نستنتج أن العلاقة التي تربط المفردة القرآنية وبين المعاني التي تحملها داخل النظم القرآني هي علاقة تفاعل وتكامل مطلق، لأن المتأمل في الألفاظ القرآنية ومعانيها يجدها مكونة في ذلك لحمة واحدة وتماسك عجيب وانسجام محكم أعطي للنص القرآني جمالية في صورة إعجازية، وقد عبّر الرافعي عن هذه العلاقة فقال:"من أعجب ما رأينا في إعجاز القرآن وإحكام نظمه، أنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك وتتغلغل فيه فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه، ثم تعرف العكس وتتعرفه متثبتا فتصير منه إلى العكس ما حسبت وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كليهما، حتى ترده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة، لأن ذلك التوالي بين الألفاظ ومعانيها، وبين المعاني وألفاظها، مما لا يعرف مثله إلا في الصفات الروحية العالية، إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله فركبتهما تركيبا مزجيا بحيث لا يجري حكم في هذا التجاذب على احداهما حتى يشملها جميعا"[16]

وإنني في هذه الصفحات الوجيزة آثرت أن أبحث في العلاقة بين الدال والمدلول للمفردة القرآنية داخل السياق الموجود في الآية القرآنية، موضحا الخصوصيات الدلالية التي تحملها المفردة القرآنية داخل النظم القرآني وتبيين براعة الدقة في اختيار الألفاظ، ومشيرا إلى الاعتقاد السائد عند بعض المتوهمين الذين لا يعرفون معانيها في التفاسير أنها تشير بدلالتها إلى المعنى اللغوي المتعارف عليه في اللغة، لكن الممعن النظر في بلاغة المفردة في التعبير القرآني والمتذوق لها في التفاسير اللغوية البيانية والبلاغية تشير إلى عكس المراد

اللغوي تماما من توسع في دلالاتها وتشبع في معانيها، والسياق يكشف الملامح الدلالية والجمالية التي تتميز بها المفردة في التعبير القرآني، ومن أبرز هذه الخصوصيات:

1. براعة اختيار المفردة القرآنية بدقة وتصويب الخطأ في استعمالها في غير مواضعها: لقد وقفت كتب التفاسير عند البراعة الربانية في حسن اختيار وانتقاء الألفاظ القرآنية بدقة، وتعدى الأمر إلى اظهار الخطأ في استعمال بعض الألفاظ في غير مواضعها، ومثل ذلك بين لفظة: **راعنا وانظرنا**، من قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾[سورة البقرة،الآية 104]، قال برهان الدين البقاعي:(يا أيها الذين آمنوا) أي: أقروا بالايمان صدقوا إقراركم به بأن لا تقولوا للنبي صلى الله عليه وسلم (**راعنا**) التي تقصدون بها الرعاية والمراقبة لمقصد الخير وخفض الجانب، فاغتنمها اليهود لموافقة كلمة سيئة عندهم فصاروا يلوون به ألسنتهم ويقصدون بها أرعونة، وهي إفراط الجهالة فنهاهم عن موافقتهم في القول منعا للصحيح الموافق في الصورة لشبهه من القبيح وعوضهم منها ما لا يتطرق إليه فساد، فقال(**وقولوا انظرنا**) فأبقى المعنى وصرف اللفظ، قال الحرالي: ففيه إلزام تصحيح الصور لتطابق تصحيح المقاصد وليقع الفرق بين الصورتين كما وقع الفرق بين المعنيين فهي آية فرقان خاصة بالعرب[17].

ومثله كذلك في براعة اختيار الألفاظ القرآنية، نجد القرآن الكريم يدعو إلى الدقة في التعبير والاحكام فيه حتى لا يصلح أن يقع لفظ مكان آخر فتظل المعاني بين الاحتمالات، وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه، ومثله ما نجد في استعمال لفظة:(**أسلمنا وآمنا**) من قوله تعالى:﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾[الحجرات14]،

قال فيها عبد الفتاح لاشين:"فقد نبّه القرآن الكريم إلى أن يلتزم الأعراب الدقة في التعبير، فيقولوا: أسلمنا بدلا من آمنا حتى تقع الكلمة على معناها الحقيقي دون تحريف، ومن البديع في هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى بعد أن أغلظ عليهم وجهّلهم بعدم الدقة في استعمال الكلمات في محلها، أدخل على الكلام شيئا من المحاسن، وستر الغلظة بنوع من اللطائف، فأتى بأداة الاستدراك، فقال:(ولكن قولوا أسلمنا)، فلو اقتصر على ما دون الاستدراك، لكان في الكلام تنفير لهم وإساءة، فأوجبت البلاغة وحسن التلطف، ذِكر الاستدراك، ليُعلَم أن الإيمان موافقة القلب للسان، وإن انفراد اللسان بذلك يسمى إسلاما، ولا يسمى إيمانا، وزاد ذلك ايضاحا ولطفا، فقال:(ولما يدخل الايمان في قلوبكم)"[18].

2. **الاتساع الدلالي للمفردة القرآنية:** يراد بالتوسع الدلالي "اتساع معنى كلمة ليغطي مدلولات أوسع وأكثر"[19]، وقد حدد بعض الدارسين من الوجهة الصوتية بأنها:"مجموعة من الوحدات الصوتية المؤلفة بطريقة معينة لكي ترمز للأشياء الحسية والأفكار المجردة"[20]، أو هي:"المجموعة الصوتية التي تدل على معنى، وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأوّلي في بناء النظم والوحدة المكونة له، فلا يغنى أحدهما عن الآخر...، وهي ليست كائنا معجميا، إذ يتبين لقارئ القرآن أنها تمتاز بدلالة جديدة يُضفيها الموضوع على حياد المعجم"[21].

وقد بَيَّنَ عبد الله دراز خاصية الاتساع الدلالي لمفردات القرآن الكريم وتجدد معانيها، قال:"وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملامسة والأحكام والخلو من كل غريب عن الغرض ما يتسابق به مغزاه على نفسك دون كدّ خاطر ولا استعادة حديث، كأنك لا تسمع كلاما ولغات، بل ترى صورا وحقائق ماثلة، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبرا ووقفت على معناه محدودا، هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديدا، غير

الذي سبق إلى فهمك أول مرة، وكذلك ...حتى ترى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوها عدة كلها صحيح أو محتمل الصحة، كأنها هي فص من ألماس يعطيك كل ضلع منه شعاعا، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطّيف كلها فلا تدري ماذا تأخذ عينيك وماذا تدع ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك لرأي منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتابا مفتوحا مع الزمان يأخذ كل منه ما يُسّر له، بل ترى محيطا مترامي الأطراف لا تحدّه عقول الأفراد ولا الأجيال"[22].

ويمكن أن نبرز هذه الخاصية في مفردة (**دعو**) أو الدعاء، التي حملت معان متعددة في النظم القرآني، ومحاولة توضيح اعتقاد الناس وتنوير مفاهيمهم لما سمعوا أو قرؤوا لهذه المفردة، لأن المراد بها في العرف العام إما: الطلب والسؤال، أو الثناء، في حين أن المعنى الحقيقي للمفردة بعيد كل البعد عن هذا الفهم والاعتقاد الذي تعارف عليه لدى العامة؛ لأن المتأمل لهذه المفردة في الخطاب القرآني وما جاء عن المفسرين لكلام الله يجد أنها تحمل صور متعددة ذات اتساع دلالي في المفاهيم والمعاني يحددها السياق في التعبير القرآني، فهي تعني **العبادة** في قوله تعالى:﴿**أَتَدۡعُونَ** بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥﴾ الصافات/125، أي: "أتعبدون ربّا سوى الله"[23]، وبمعني **الصلاة** في قوله تعالى:﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ **يَدۡعُونَ** رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ٢٨﴾ الكهف/28، فسر المفسرون هذه الآية: بقولهم أنها تعني "الصلوات الخمس"[24]، وبمعنى **القول**، في قوله تعالى:﴿**يَدۡعُواْ** لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ الحج/13، قال "الأخفش ﴿يدعو﴾ بمعنى: يقول"[25]، وبمعني **السؤال** في قوله ﷻ:﴿قَالُواْ **ٱدۡعُ** لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ٦٨﴾ البقرة/68، "قال الكلبي:سل لنا ربك"[26]، وبمعنى **الاستغاثة** في قوله تعالى:﴿وَإِن

كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ **وَٱدۡعُواْ** شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ البقرة/23، فقوله:﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾، "معناه: دعاء استصراخ، والشهداء من شهدهم وحضرهم من عون ونصير، قاله ابن عباس وقيل عن مجاهد: إن المعنى دعاء استحضار"[27]، وبمعنى **التسمية** قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ **دُعَآءَ** ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ النور/63، ففي هذه الآية الكريمة أمر الله سبحانه وتعالى جميع معاصري الرسول ﷺ أن "لا تجعلوا تسميته ونداءه بينكم كما يسمى بعضكم بعضاً ويناديه باسمه الذي سماه به أبواه"[28]؛ وبمعنى **التمني** في قوله تعالى:﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا **يَدَّعُونَ** ٥٧﴾ يس/57، قوله:"(مَّا يَدَّعُونَ): بمنزلة يتمنون، قال أبو عبيدة: العرب تقول ادع علي ما شئت، بمعنى تمن علي"[29]، و"قال الزجاج: وهو من الدعاء، أي: ما يدعون به أهل الجنة"[30]. من خلال هذه النماذج يتضح لنا بجلاء أن مفردة دعا ومشتقاتها في القرآن الكريم والتي تعددت مواضعها واختلفت معانيها ودلالاتها باختلاف السياق الذي وردت فيه قد توسعت معانيها في التعبير القرآني، وأدت من المعاني مالا تؤديه غيرها، وهذه البراعة في النظم سر إعجازي بهر العقول في الاستعمال السياقي.

3. **التشبع الدلالي للمفردة القرآنية:** تمتاز هذه الخاصية في مفردات النظم القرآني، بحيث نجد كل لفظة في القرآن الكريم لها عمق الدلالة في السياق، وهذا ما يجعلها ذات مساحة واسعة من المعاني تبهر العقول وتعجز الألسن عن الحديث والتفكير، لأن المتأمل في بعض مفردات القرآن يجد أنها تحمل معان ودلالات غير متناهية المفاهيم، وقد أولى علماء التراث لهذه الخاصية في النظم القرآني، وكان من بينهم الجاحظ حينما تحدث عن مزايا

لفظة: **النار** وأنواعها في قوله:"وقالت الحكماء إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطب فجمع بقوله:﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ٣١﴾ النازعات/31، النجم والشجر والملح واليقطين والبقل والعشب، فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرعى، ثم ذلك قال على النسق﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ٣٣﴾ النازعات/33، فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله، لأن الملح لا يكون إلا بالماء ولا تكون النار إلا من الشجر، وقال تبارك وتعالى:﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٨٠﴾ يس/80، وقال:﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ٧٣﴾ الواقعة/71_73، والمرخ والعفار والسواس والعراجين وجميع عيدان النار، وكل عود يقدح على طول الاحتكاك فهو غني بنفسه بالغ للمقوى وحجر المرو يحتاج إلى قراعة الحديد وهما يحتاجان إلى العطية ثم إلى الحطب والعيدان القادحة وهي المروية وهي الحطب، قال عزوجل:﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ٧﴾ الماعون/6_7، والماعون: الماء والنار والكلأ"[31].

وكذلك نجد التشبع الدلالي في لفظة **لباس**، من قوله تعالى:﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ البقرة/187، فالمتأمل في مفردة **لباس** داخل النظم القرآني يتضح له أنها تشير إلى أن المرأة لباس للرجل، وكذلك الرجل لباس لها، غير أن هذه المفردة تحمل معان متعددة أخرى، فشرط اللباس أن يكون خاصا بصاحبه وملكا له وحده، وكذلك شرط المرأة أن تكون بالكلية لزوجها لا لغيره، وشرط اللباس أن يستر

العورة، فكذلك المرأة لزوجها والعكس، فالمرأة ساترة لعيوب الزوج وليست أداة فضيحة، كما أن شرط اللباس الطهارة، ولا يخفى من كل هذا ما في الكلمة من أبعاد توحي، فوق الطهارة والستر والخصوصية بالقرب واللصوق[32].

4. **المفردة القرآنية لها معنى خاص يميزها مما يوهم الترادف:** لقد وقع خلاف كبير _بين المتقدمين والمتأخرين_ حول الترادف في اللغة بين المؤيدين والعارضين له، غير أنهم يكادون يتفقون على نفي الترادف بين ألفاظ القرآن الكريم، لأن هذا الأخير مبني على الإعجاز، وللمفردة أثر في نظمه المعجز، لأن السياق يحدد معناها على أكمل وجه، ولا يمكن أن تحل مفردة أخرى مكانها مهما بلغت من البلاغة والاستعمال واعتقاد بعضهم أنها من مرادفاتها، ونضرب لذلك مفردات التي يظن القارئ البسيط أنها مترادفات، مثل لفظة: **الملجأ والمغارة والمُدخل**، وهي ألفاظ "وصف الله تعالى المنافقين بالجبن والخور في الحروب، وأن ما يتظاهرون به من الشجاعة تمويه وتضليل، فقال معبرا عن ذلك ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ٥٧﴾ التوبة/57، فهم جماعة تائهة تذهب هنا وهناك بحثا عن الأمن من الخوف والمهرب من الشدة، وقد يظن صاحب النظرة العجلى أن تلك الألفاظ (ملجأ، ومغارات، ومدخلا)، ألفاظ مترادفة في المعنى، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فكل كلمة من تلك الكلمات تُبيّن شكا خاصا للمهرب الذي يبحث عنه المنهزم من هؤلاء المنافقين.

(**فالملجأ**): هو الشكل العدي المألوف من غرفة أو دار، أو زمرة من الناس.

و(**المغارة**): حفرة في باطن الأرض، أو بطن جبل، لا يألفه ولا يرضاه إلا من اشتد خوفه.

و(**المدخل**): هو المكان الضيق الذي لا يستطيع الخائف أن يدخله إلا بجهد، ولا يمكن أن يستقر فيه إلا تضاؤلا والتصاقا، وتوحي هذه الكلمة بجرسها وصوتها ووزنها وتشديد الدال فيها، بهذا المعنى"[33].

ومن ذلك أيضا نجد كلمة (**مرضعة ومرضع**) و(**حامل وحمالة**) التي يعتقد بعضهم أنها ألفاظ مترادفة، غير أن الباحث في كتب التفاسير يجد أن توظيف كل مفردة في سياقها لها دلالة خاصة وإعجاز محكم النظم، فحول مفردة: (**مرضعة ومرضع**) نجد التعبير القرآني يصور لنا هول يوم القيامة والفزع الذي يصيب الناس فيه بحيث لا يدع بقية من وعي، من قوله ﷻ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ **مُرۡضِعَةٍ** عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ الحج/1_2، والأصل في لغة العرب أن لفظة(**مرضع**) بدون تاء وصف خاص بالمرأة، ولا يكون هذا الوصف للرجل، ولهذا لا تدخل التاء عليها، إذ الأمور الخاصة بالمرأة لا تدخلها التاء، فلا يقال: رجل مرضع وامرأة مرضعة، وإنما يقال: امرأة مرضع فقط.

وكذلك لا يقال: رجل حامل، وامرأة حاملة، وإنما يقال: امرأة حامل _إن كانت حبلى_ فإذا حملت شيئا على ظهرها أو على رأسها ، فيقال لها حينئذ: حاملة، أو حمّالة بالتاء، قال تعالى:﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ **حَمَّالَةَ** ٱلۡحَطَبِ ٤﴾ المسد/4، وإنما دخلت التاء على لفظة **مرضعة** في قوله تعالى:﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ **مُرۡضِعَةٍ** عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ الحج/2، لأن الله تعالى يريد أن يصور لنا هول يوم القيامة، حتى إنه يُشغل الانسان عن أعزَّ ما يحب.

فالمرضع: _بدون التاء_ هي المرأة التي من شأنها أن ترضع أو من لها ولد ترضعه، وإن لم تكن في ذلك الوقت مرضعة، لكن **مرضعة _بالتاء_** هي التي تلقَمُ الثدي فم الطفل، وتزاول هذا العمل فعلا.

و**المرضعة:** لا تكون إلا لحالة الارضاع ذاتها، وأما **مرضع** فتقال للمرأة التي من شأنها أن ترضع وإن لم تكن مرضعة في ذلك الوقت، ولا شك أن الذهول في **المرضعة** يكون أخوف وأفزع، فلا تذهل **المرضعة** عن طفلها والثدي في فمه إلا للهول الذي لا يدع بقية من وعي.

كما آثر القرآن التعبير في الآية بـ(كل ذات حمل) على (كل حامل)، لأن لفظ **الحامل** قد يطلق على المرأة المهيئة للحمل، وعلى من هي في أوائل حملها ومباديه، فإذا قيل: (ذات حمل) لم يكن إلا لمن قد ظهر حمله، وصلح للوضع كاملا أو سقطا، كما يقال: ذات ولد.

فالتعبير القرآني آثر لفظ **المرضعة** بالتاء، إذ يتحقق معها فعل الإرضاع، دون التهيؤ له، واختيار لفظة (ذات حمل) حيث يتحقق معه وجود الحمل، وقبوله للوضع كل ذلك لتصوير الهول العظيم، وتمثيل الشدة الكبيرة التي تقع في ذلك اليوم[34].

5. المشترك اللفظي للمفردة القرآنية الحسنة المنزلة في مقامها والقبيحة الموضع في غيرها: معلوم أن اللغة العربية تحمل في طياتها العديد من الألفاظ المشتركة لفظيا، ولكن هذا الاشتراك لا يعني أنها تتحد مع بعضها في المعنى، بل القرائن البينة والسياق هي التي تحدد موضعها ومنزلتها، فقد يحسن استعمالها في مكان ما ويكره ذكرها واستخدامها في مكان آخر، " فإذا ورد مثل هذه الألفاظ في تعبير فلابد أن يكون مع كل لفظة من هذه الألفاظ قرينة بينة

توضح أن المراد منها هذا المعنى الحسن، فإذا وردت في كلام وليس معها قرينة تبين هذا المعنى الحسن، قَبُحت الكلمة، وكانت في مكانها معيبة، وغير لائقة في الاستعمال، وقد وردت في اللغة ألفاظ من هذا القبيل، استعملها العرب في مواطن، فلم يوفقوا في استخدامها، فجاءت كريهة على النفس، ثقيلة على السمع، ينفر منها الذوق، إذا لم يُتح لهم من الذوق الصافي والفرة النقية والملكة الأصلية ما ينقيها ويصفيها، مما علق بها من ثقل وكراهية، ولكن القرآن الكريم حين استخدم مثل هذه الألفاظ في التعبير أوردها في مواطنها في الآيات الكريمة، وجردها من كل ما يعلق بها من ثقل وكراهية، وأحاطها بالقرائن الدالة والعلامات الهادية، حتى وصلت إلى السامع دون أن تنحرف عن هدفها وكانت طيبة المجرى على اللسان، خفيفة على الأسماع"[35].

ونضرب لذلك بمثال من القرآن الكريم بلفظة:(**عزّروه**) من قوله تعالى:﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ **وَعَزَّرُوهُ** وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ الأعراف/156_157، فإن المتمعن النظر في المعاني التي تحملها هذه اللفظة في المعاجم اللغوية يجدها أنها مشتركة بين معنيين _وهما في الأصل معنيان ضدان_: فهي تطلق في المعنى الأول على معنى قبيح يشمل: اللوم والضرب، وهذا ما أشار إليه ابن منظور في معجمه: عزر: العَزْر: اللَّوْم. وعَزَرَهُ يَعْزِره عَزْراً وعَزَّرَه: ردَّه. والعَزْرُ والتَّعْزِيرُ: ضرب دون الحدّ لِمَنْعِه الجانِيَ من المُعاودَة ورَدْعِه عن المعصية؛ وقيل: هو أَشدُّ الضرب. والعَزْرُ:المنع. والعَزْرُ: التوقيف على باب الدِّين. قال الأَزهري: وحديث سعد يدل على أَن التَّعْزِيرَ هو

التوقيف على الدين. والتَّعْزِيرُ: التوقيفُ على الفرائض والأَحكام. وأَصل التَّعْزِير: التأْديب.

والمعنى الآخر يحمل المعنى الحسن: عَزَّرَه: فخَّمه وعظَّمه، وعَزَرَه عَزْراً وعَزَّرَه: أَعانَه وقوَّاه ونصره. والتعزير في كلام العرب: التوقيرُ، والتَّعْزِيرُ: النَّصْرُ باللسان والسيف. وفي حديث المبعث: قال وَرَقَةُ بن نَوْفَلٍ: إِنْ بُعِثَ وأَنا حيٌّ فسَأُعَزِّرهُ وأَنْصُرُه؛ التَّعْزِيرُ ههنا: الإِعانةُ والتوقيرُ والنصرُ مرة بعد مرة، وأَصل التعزير: المنعُ والردُّ، فكأَن مَن نصَرْتَه قد رَدَدْتَ عنه أَعداءَه ومنعتهم من أَذاه، ولهذا قيل للتأْديب الذي هو دون الحدّ: تَعْزِير، لأَنه يمنع الجانيَ أَن يُعاوِدَ الذنب[36].

وفي هذه الآية جاءت مفردة ﴿عَزَّروه﴾ وما "معها من من القرائن من قبلها ومن بعدها فخصصت معناها بالحُسن، وميزته عن القبح، ولو وردت مهملة بغير قرينة وأريد بها معنى الحُسن لسبق إلى الوهم ما اشتملت عليه من المعنى القبيح"[37]، وقد حدد علماء التفاسير فحوى معناها الحسن في اجتهاداتهم لضبط معاني مفردات القرآن الكريم في النظم القرآني الذي يحدد معناها السياق، فقالوا:"﴿ **عَزَّروه**﴾ أي: منعوه بالنصر حتى لا يقوى عليه عدو ﴿واتبعوا النور الذي أنزل معه﴾ هو القرآن أو الشرع كله"[38]، وآخر قال:"ومعنى﴿ **عَزَّروه**﴾ أي: وقَّروه، فالتعزير والنصر: مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور: يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة، والنور: كناية عن جملة الشرع، وشبه الشرع والهدى بالنور، إذ القلوب تستضيء به، كما يستضيء البصر بالنور"[39].

ووردت هذه المفردة في مقام آخر من سورة المائدة في قوله ﷻ:﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي <u>وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ</u> وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا

لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢﴾ المائدة/12، جاء في التفسير "أي: لِتَنْصُروه بالسيف، ومن نصر النبيّ، ﷺ، فقد نَصَرَ الله عزَّ وجل. وعَزَّرْتُموهم: عَظَّمْتموهم، وقيل: نصَرْتُموهم؛ قال إِبراهيم بن السَّرِيّ: وهذا هو الحق"[40].

ومن هذا النموذج يتضح لنا بجلاء أن مفردات القرآن الكريم تحسن معناها في نظمه حتى وإن كانت في معناها اللغوي تحمل معنى قبيح، بخلاف في النظم البشري التي تأتي كريهة على النفس وثقيلة على السمع، لأن القرينة المحيطة بالمفردة في السياق هي التي توضح حسنها وبراعة نظمها في التركيب.

6. **تعاور المفردات ودقة اختيارها ومناسبتها للموقف والسياق:** لقد اختار القرآن الكريم في العديد من الآيات القرآنية ألفاظا لتؤدي معنى معينا، وفي الغرض نفسه نجده يختار لفظا آخر، فيتوهم القارئ والسامع أن اللفظتين لهما المعنى نفسه ومثيلان المضمون في السياق، لكن الباحث في أسرار القرآن الكريم يجد أن التعبير القرآني اختار هذه الألفاظ المختلفة ليدل على براعة نظم إعجازه وقوة معاني ألفاظه، وهذه الخاصية نجدها كثيرا في القصص القرآني، بحيث تكون البراعة في اختيار لفظ في معنى معين ويختار لفظا آخر في المعنى نفسه، وهذا التعدد في الألفاظ يوحي بمشاهد تناسب سياقها في التعبير، ومن ذلك التعبير عن خروج الماء تارة بلفظ **الانفجار** وتارة أخرى بلفظ **الانبجاس** في توظيفهما في قصة موسى عليه السلام باختلاف المواضع من السور القرآنية، ففي قوله تعالى من سورة البقرة:﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ **فَٱنفَجَرَتۡ** مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ البقرة/60، ويذكر لفظة أخرى في القصة نفسها من سورة الأعراف يقول

ﷻ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ **فَٱنۢبَجَسَتۡ** مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ الأعراف/160، فهذا الاختلاف في توظيف المفردات نابع من قوة المعنى الذي تحمله المفردة في سياق التعبير القرآني؛ "لأن البلاغة والبيان يقتضي أن يؤدي باللفظ الأول **انفجرت** ليدل على المعنى المقصود، والأنسب للغرض المراد، فإن تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قال:﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ فلما كان الطلب من موسى عليه السلام في هذه الآية لربه، ناسب التعبير عن ذلك بكلمة **انفجرت**، إذ الانفجار انصباب الماء بكثرة، وكان في هذه الآية (كلوا واشربوا)، فكان من المناسب مع طلب موسى عليه السلام ذكر اللفظ الأبلغ، لهذا جاء التعبير بلفظ الانفجار دون لفظ الانحباس، ولما كان طلب السقي في الآية الثانية من بني اسرائيل لا من موسى في قوله:﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾ ناسب ذلك كلمة **انبجست**، لأن الانجباس ظهور الماء بدرجة أقل من الانفجار، وكان في هذه الآية (كلوا) وليس فيها (اشربوا) فلم يبالغ فيه، لهذا جاء التعبير بلفظ **الانبجاس** دون لفظ **الانفجار**، ليتناسب مع طلب قوم موسى، وليكون هناك فارق بين طلب موسى وطلب قومه"[41]، ونخلص من هذين اللفظتين أن "الانفجار للماء الكثير والانبجاس للماء القليل، وكل تعبير يتناسب موطنه، فإن المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم، هذا من ناحية، ومن ناحيى ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء، ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولو يوح إليه وحيا، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس"[42].

وفي خاتمة هذه الجولة السريعة في ثنايا ألفاظ القرآن الكريم، ومن خلال تأملنا في مفرداته والمعاني التي تحملها داخل النظم القرآني، وجدنا أنها تحمل خصوصيات مميزة تختلف عما هي عليه في النظم البشري وفي المعاجم اللغوية، والسياق هو الذي يحدد معناها ويسجل توسع دلالاتها ويعطيها صفة المنزلة السامية في البلاغة والبراعة في دقة اختيار مفرداتها، فجاءت على غاية الاتقان وكمال الإحكام، فظهر جمال وحسن موقعها في النظم، ومن أهم الخصوصيات التي توصل إليها البحث:

_ امتازت اللفظة القرآنية بالبراعة في اختيار موقعها داخل النظم، وتعدى الأمر أبعد من ذلك بعدما أظهر النظم القرآني الخطأ في استعمال بعض الألفاظ في غير موضعها، وكانت مفردة انظرنا بدل استعمال راعنا في النموذج السابق دليل على الاهتمام البالغ بمحتوى المفردة والدقة المضبوطة في التعبير والاحكام فيه والبراعة المتناهية في اختيار الألفاظ القرآنية حتى لا يصلح أن يقع لفظ مكان آخر فتظل المعاني بين الاحتمالات، وتتوه الأغراض والمقاصد في ظلال الشك والتمويه.

_ الاتساع الدلالي لمفردات القرآن الكريم وتجدد معانيها، ومثل ذلك لفظة دعو التي حملت معان متعددة في النظم القرآني حددها السياق القرآني، والتي فاقت معاني مفرداتها أكثر من عشرة مفردات.

_ التشبع الدلالي للمفردة القرآنية بحيث نجد لها عمق الدلالة في السياق، وهذا ما يجعلها ذات مساحة واسعة من المعاني التي تبهر العقول وتعجز فحول البلاغة وأرباب الفصاحة على الإتيان بمثل هذه الخاصية، لأن المفردات القرآنية تحمل معان ودلالات غير متناهية المفاهيم.

_ يكاد يتفق أغلب الدارسين للإعجاز القرآني أنه لا وجود للترادف في القرآن الكريم، لأنهم اكتشفوا أن للمفردة القرآنية أثر بالغ في نظمه المعجز، لأن السياق يحدد معناها على أكمل وجه، ولا يمكن أن تحل مفردة أخرى مكانها مهما بلغت من البلاغة والاستعمال واعتقاد بعضهم أنها من مرادفاتها.

_ هناك اشتراك لفظي في مفردات القرآن الكريم، ولكن هذا لا يعني أن المعاني متحدة ومتفقة، بل السياق هو الذي يحد مكانتها، وقد امتازت المفردة القرآنية بخاصية مميزة، وهي أن هناك ألفاظ تحمل معنى مشترك بين القبح والحسن، فقد يحسن استعمالها في مكان ما ويكره ذكرها واستخدامها في مكان آخر، ومثل لفظة: التعزير التي يطغى عليها في العرف اللغوي الجانب السلبي القبيح، ، بينما في القرآن الكريم أعطى لها صفة الحسن والبلاغة في النظم وأعلى من منزلتها.

_ تعاور المفردات ودقة اختيارها ومناسبتها للموقف والسياق، وذلك بأن يتوهم القارئ والسامع أن اللفظتين لهما المعنى نفسه ومثيلان المضمون في السياق، _مثل ما تكلمنا عن مفردة: الانفجار والانبجاس_، لكن هذا الأمر وضحه علماء البيان والتفسير الذين كشفوا أسرار التعبير البياني لألفاظه، وأقروا أن اختيار مفردة ما بخلاف المفردة الأخرى ليدل به على البلاغة والبراعة في إعجاز النظم القرآني نابع من قوة معاني مفرداته.

---

[1] الخطابي: البيان في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة مصر، ط4، ص26_27.

[2] ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مادة فرد، ج4، ص500.

[3] منير سلطان: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ص15.

[4] جماليات المفردة القرآنية: ياسوف أحمد، ص20.

[5] جماليات المفردة القرآنية: ياسوف أحمد، ص20.

[6] يوسف الخطيب: إعجاز القرآن، دار الفكر العربي، 1974م، ص321.

[7] البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص1.

[8] البيان والتبيين، ج1، ص20.

[9] النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ط6، 1984م، ص90_91.

[10] سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص39. والتصوير الفني في القرآن، ص91.

[11] ينظر: عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص101_104

[12] عبد القاهر الجرجاني، ص400_401.

[13] ابن عطية الأندلسي: تفسير المحرر الوجيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،ط1، 2001م، ج1، ص52.

[14] عدنان الرفاعي: المعجزة الكبرى، دار الخير، دمشق سوريا، ط1، 2006، ص419.

[15] سامي محمد هشام حريز: نظرات من الإعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا وتطبيقيا، دار الشروق، عمان الأردن، ط1، 2006م، ص34.

[16] الرافعي: إعجاز القرآن، ص36.

[17] برهان الدين البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1995م، ج3، ص189.

[18] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، دار المريخ، الرياض السعودية، دط، دت، ص8_9.

[19] محمد علي الخولي: معجم علم اللغة النظري، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، ط1، 1982م، ص250.

[20] منير سلطان: بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف، الاسكندرية مصر، ط2، 1993م، ص15.

[21] ياسوف أحمد: جماليات المفردة القرآنية، دار المكتبي، دمشق سورية، ط2، 1999م، ص20.

[22] عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص117_118.

[23] الأزهري: تهذيب اللغة، مادة(دعو)، ج3،ص124.

[24] القاضي ابن عطية: المحرر الوجيز، ج3، ص512.

[25] ابن عطية: المحرر الوجيز، ج4، ص110.

[26] تهذيب اللغة، ج3ص123.وينظر :معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ص171.

[27] الأندلسي: المحرر الوجيز، ج1،ص107.

[28] الكشاف: الزمخشري، ج4،ص328.

[29] الأندلسي: المحرر الوجيز، ج4،ص459.

[30] الزمخشري: الكشاف، ج5،ص184.

[31] الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص408.

[32] ينظر: مصطفى الدّباغ: وجوه من الإعجاز القرآني، مكتبة المنار، الورقاء الأردن، ط1، 1986م، ص31.

[33] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، ص75_76.

[34] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، ص78_79.

[35] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، ص171_172.

[36] ابن منظور: لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار أحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط3، 1999م، ج9، ص184.

[37] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، ص172

[38] ابن جزي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1995، ج1، ص325

[39] عبد الرحمن الثعالبي المالكي: تفسير الثعالبي المسمى بالجواهر الحسان في تفسير القرآن،، تحقيق الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود والأستاذ عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط1، 1997م، ج3، ص85

[40] ابن منظور: لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار أحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط3، 1999م، ج9، ص184.

[41] عبد الفتاح لاشين: صفاء الكلمة، ص153.

[42] فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ص322.